يهودا الجرداء»[١٣]. ولغة التوراة العبرية، التي اعتبرها بعض الصهيونيين لغة مقدسة، تخلّت عنها الطوائف اليهودية. فلقد تحوّلوا عنها، في بابل، الى الآرامية؛ وفي فلسطين ومصر الى اليونانية[١٤]. كما ان نغمة الحنين نحو فلسطين اختفت، وساد اعتقاد بأن «العودة» منوطة بأمر ربّاني في مستقبل غير منظور عندما يأتي المنقذ المنتظر[١٥]. وفي بتسبورغ، العام ١٨٨٥، صرح المندوبون الى المؤتمر القومي العام لممثلي الكنيس اليهودي، بصراحة: «نحن لا ننتظر العودة الى فلسطين... ان اميركا هي ارض صهيون»[١٦].

لقد تعامى منظرو الصهيونية عن الحقائق الموضوعية، الاقتصادية والاجتماعية، التي مرّت اوروبا بها خلال القرن الماضي، فلجأوا الى تدبيج مقولات غير موضوعية. فهذا آحاد هعام لم يرد الاندماج، واصرّ على بقاء اليهود في الغيتوات. كتب: «وحينما تتخلّى اليهودية عن حواجز الغيتو ستقع تحت خطر فقدان الـ ' انا' الخاصة بها، أو، على الاقل، ستفقد ' كمالها القومي' ، وربما ستُقسم الى أشكال شتّى، يحمل كل منها طابع وجوده الخاص، تماماً كتلك البلدان التي يتوزّع اليهود عليها»[١٧].

ولم يُعدَم بعض المنظرين الصهيونيين من اختلاق حجج قائمة على «وحدة الثقافة اليهودية» و«ماضي اليهود ذي السمات المميّزة» و«طريقة تفكيرهم الخاصة بهم» التي تبقى محافظة على وجودها بعد ان «يصبح الدين قوة غير فاعلة...». وبالاضافة الى هذه الحجج، كان ثمة ذكر ان اليهود هم «الأمة اليهودية العالمية» طالما بقيت «قناعة العالم الخارجي قائمة على هذا النحو»[١٨].

امّا ثيودور هرتسل، فقد اعتبر وجود اللاسامية سبباً في وجود «الأمة اليهودية»، على اعتبار ان اللاسامية ازلية، وان كراهية الامم لليهود مستمرة. «ولهذا، فقد صارت اللاسامية واضطهاد اليهود الرب الحقيقي والامل الواقعي المعوّل على تحقيقه، والضمان الفعلي لحياة الصهيونية». واللاسامية، عند هرتسل، مفيدة لتطوير الشخصية اليهودية، وحافز لدفع اليهود الى الهجرة لتحقيق الحلم الصهيوني[١٩]. كان هرتسل «يعرف، تماماً، ان قوة الحجج العلمية في الجعبة النظرية الصهيونية لا تتجاوز الصفر. ولهذا بالذات كان يصرح قائلاً: ' من اجل الدعاية لأفكارنا لا داعي للاجتماعات، بكل ما تحمله من ثرثرات لا طائل تحتها. ان علينا ان نجعل هذه الدعاية جزءاً لا يتجزأ من العبادة' »[٢٠].

يتضح من كل ذلك ان أرباب الحركة الصهيونية اختلقوا تفسيرات لا تستند الى حقائق موضوعية في تبيانهم لبواعث قيام حركتهم التي نشأت اوروبية مسيحية، قبل ان تنشأ اوروبية يهودية[٢١]. واذا كان اليهود لاقوا اضطهادات في اوروبا، في بعض الاوقات، فلا يعني ذلك ان كل الشعوب كانت تضطهدهم وتضمر لهم الكراهية. ففي فلسطين، خلال القرن السادس عشر، ذكر صموئيل اوسكت حُسْن المعاملة التي يلقاها اليهود هناك. كتب: «هنالك [في فلسطين]، يستطيع كل يهودي ان يجدد حياته الداخلية، وان يغيّر وضعه؛ ان يطرح العادات والتعاليم الخاطئة، وان يتخلّى عن الممارسات التي أُرغم على اتباعها بسبب اضطهاد الامم التي كان يعيش بينها في المنفى. في صفد، كل يهودي يتلقّى نعمة الرب، لأنه منحه حرية التوبة...»[٢٢].

كما ان الدولة العثمانية فتحت أرجاء سلطنتها للمهاجرين اليهود، واعطتهم حقوقاً، ومنحت المجتمع اليهودي استقلالاً ذاتياً، في حين كانت نظرة الصهيونيين الاشكناز الى اليهود السفاراديم نظرة احتقار وازدراء. لقد اعتبروا يهود اليمن ومراكش كمّاً بشرياً لا أهمية له؛ لكنه يصلح للاستغلال باستخدامه في الاعمال الشاقة. ومع ذلك، لاقى اولئك الذين هاجروا بدافع ديني وبتغرير